ـ 4 ـ

«لماذا يكرهوننا؟»

في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، أي بعد شهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر على البنتاغون والبرجين التوأمين في نيويورك، قال الرئيس بوش: «كيف أجيب حين أرى في بعض البلاد الإسلامية كراهية حادة لأمريكا؟ سأقول لكم كيف أجيب: أنا مندهش، ولا أصدق ذلك لأنني أعلم كم نحن أخيار»[1].

سوف يعد الكثير من الأمريكيين بيان الرئيس مغاليا في البساطة والسطحية إلى حد محرج. لكن قد يكون من الأنسب عدم اعتباره مؤشرا على الذكاء بل جهرا بالإيمان الديني. فجملة «أعلم كم نحن أخيار» تعبر عن الإيمان الراسخ بطيبة وصلاح أمريكا الذي ظل دوما جزءا من رسالتها المسيحانية. في الوقت ذاته، تتدخل أيضا الطبيعة شبه الدينية لثنائية الرابح ـ الخاسر. وكما يدرك العديد من الأمريكيين، تتكون «الطيبة والصلاح» من تشكيلة متنوعة من الصفات والسمات. هنالك معادلة ضخامة الحجم والصلاح والطيبة: ولذلك، يجب على الأمة التي رسخت نفسها القوة العظمى الوحيدة على الأرض أن تكون

صالحة وخيرة، لا فيما يتعلق بالقوة الاقتصادية والامتياز العلمي فقط، بل بالمعنى الأخلاقي أيضا[2]. وتدخل في ذلك أيضا أسطورة البطل الأمريكي الخارق: «الأمريكي الطيب الخير» مشهور بكرمه الأصيل، واستعداده للفداء والتضحية بنفسه في سبيل المحتاجين ـ طيبة خيرة لا تشوبها شائبة أو ذنب. ووفقا لهذا الزعم الاستكباري التيّاه، يجب احترام ما أصبح يعرف في الخمسينيات بـ«الأمريكي القبيح»، المتطفل الحقود ـ بل الإعجاب به وتبجيله. ولذلك، من «المدهش» وجود مثل هذه الكراهية في العالم، لا في «بعض البلاد الإسلامية» فقط. لماذا يصعب تصديق هذه الحقيقة؟ ما الذي يجعلها عصية على الفهم إلى هذا الحد؟

أعتقد أن من المهم فهم هذه الكراهية بحيث نستطيع تخفيف حدة عدائيتها الهائلة والعمل من أجل استعادة مزيد من العلاقات الودية. وليس كافيا القول إن هذه الكراهية لا تعبر إلا عن الحسد والمكر من جانب أولئك الفاشلين والخاسرين. ومن المبالغة في التبسيط القول إن ذلك مجرد شعور بالاستياء مناهض للرأسمالية والديمقراطية وأمريكا من جانب «الخاسرين» في هذا العالم. لكنه يبدو رد الفعل الوحيد الذي يفكر فيه ديفيد فروم وريتشارد بيرل ـ وكلاهما من كبار المسؤولين في إدارة جورج بوش الابن ـ حين يقولان ما يلي عن المنتقدين الأوروبيين:

> أنفقت الولايات المتحدة مئات المليارات قبل نصف قرن على أوروبا، ولا بد أن العديد من الأوروبيين قد عبروا عن اعتراضهم واستيائهم. استيائهم من كرم وسخاء أمريكا، ومن حاجتهم إلى الكرم والسخاء.. وليس من قبيل الصدفة على الأرجح أن تكون البلدان الأوروبية التي شهدت أقوى المشاعر المناهضة

لأمريكا هي التي يجب أن تكون أكثرها اعترافا بالفضل والجميل: فرنسا التي حررتها الولايات المتحدة؛ والمانيا التي أعادت الولايات المتحدة إعمارها وحمايتها[3].

لا يكشف هذا التصريح جهلا معيبا ومروعا بالظروف التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في أوروبا والعلاقة بين فرنسا والمانيا من جهة، وعلاقات كل منهما بالولايات المتحدة من جهة ثانية فقط؛ بل يوضح عمق الهوة التي سقط فيها المؤلفان ضحية لاعتقادهما بالقوة الخارقة لأمريكا وطيبتها وصلاحها. وهما يستعرضان نوعا من النرجسية الوطنية حين يتابعان القول ليزعما أن «الولايات المتحدة أصبحت الآن أعظم من جميع القوى العظمى في التاريخ البشري، وأظهر نصرها المؤزر أن الحرية لا تقاوم» [4]. المنطق الناتج يؤكد أن ما فعلته وتفعله الولايات المتحدة يتأصل فيه الخير والصلاح، ولذلك لا بد أن يكون الآخرون مخطئين. بل أكثر من مجرد مخطئين: لا بد أنهم يتصفون بالخسة الأخلاقية. وتردد وإحجام بعض الأوروبيين عن الانضمام إلى مبادرات أمريكا العسكرية يتيحان لفروم وبيرل رؤية نوع من القرابة الأخلاقية بين الأوروبيين والإرهابيين: «الغيرة والاستياء اللذان يحركان الإرهابيين يؤثران أيضا في العديد من حلفائنا السابقين في الحرب الباردة»، حسب تعبيرهما الخجول[5]. ولا شك في أن هذه «البراءة» المسيحانية البطولية ـ مترافقة بخريطة أخلاقية أحادية القطبية ـ تُمد إلى حدها الأقصى المغالي في التغطرس والتسطح.

لكن المسألة أكثر أهمية من أن تترك عند هذا المستوى الأيديولوجي السطحي. ومحاولتنا لفهم انتشار كراهية الولايات المتحدة في شتى أرجاء العالم يجب أن تكون أكثر عمقا. فإذا نظرنا إلى الحجج المقدمة لتفسير

هذه الكراهية والامتعاض، نجد ثلاثة تعابير: الإبادة الجماعية، والرق، والإمبريالية. إن أي مواطن أمريكي يتميز بعمق التفكير سوف يعرف على الفور دلالاتها. الإبادة الجماعية تشير إلى استئصال وإبادة السكان الأصليين في القارة الأمريكية، وهي جريمة مذهلة الحجم والامتداد، لكنها موغلة في القدم لمعظمنا اليوم وما زالت عصية على فهمنا. لكن إذا تكبدنا مشقة الإصغاء إلى الناجين من سكان أمريكا الأصليين ـ مثلما فعلت في مناسبات عديدة ـ نشعر بحزنهم الذي لا قرارة له، بجرحهم النازف النافذ كأنه اخترق روحهم. فما بقي من هذه الشعوب العظيمة قصة واقعية لا تنتهي ولا تنسى.

يشير الرق بالطبع إلى تاريخ امتد قرونا من إخضاع واستعباد الرجال والنساء الأفارقة في الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية. ومع أن الرق ألغي رسميا قبل قرن ونصف القرن، إلا أنه ما يزال باقيا. إعصار كاترينا فضح الظروف الاقتصادية والاجتماعية للعديد من الأمريكيين الأفارقة، لكن البؤس الاجتماعي ليس أول ما يخطر على البال. فقد استشعرت خلفه رعبا روحيا، نوعا من الضياع الذي يدفع العديد من الأمريكيين الأفارقة إلى اليأس. وتجربتهم المستمرة مع الوصمة، المتكررة عبر الأجيال، أعطت العديد منهم ـ خصوصا الرجال ـ شعورا بأنهم الذين «ولدوا خاسرين» في أمريكا، وتلك صورة ذاتية تضعف القدرة وتوجد حالة من اللامبالاة وإحساسا مؤلما بالعبثية واللاجدوى. أما الحراك الاجتماعي الارتقائي الذي شهدته معظم الجماعات الاثنية التي هاجرت إلى الولايات المتحدة فيبدو أنه تجاوز إلى حد بعيد العديد من المجتمعات المحلية الأمريكية ذات الأصول الأفريقية.

ثالثا، الإمبريالية تعبير استخدمه الناس في أمريكا الوسطى والجنوبية، وفي الفيليبين وغيرها من بلدان آسيا، والشرق الأوسط خصوصا، لوصف ما تمثله الولايات المتحدة من دلالة في نظرهم. بدأت المسألة مع «مبدأ» «أمريكا للأمريكيين»، الذي وضعه الرئيس الخامس للولايات المتحدة («مبدأ مونرو»). ولا حاجة بنا لأن نروي بالتفصيل الفتوحات والحروب التوسعية المبكرة التي شنتها الولايات المتحدة لاحتلال الأراضي في نصف الكرة الغربي ومناطق العالم الأخرى. لكن عند نهاية الحرب المكسيكية (1846 ـ 1848)، أجبرت المكسيك على التخلي عن جميع الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر ريوغراند (التي تشكل اليوم ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيفادا ونيومكسيكو ويوتاه إضافة إلى أجزاء من اريزونا وكولورادو). الحرب للسيطرة على الأراضي الجنوبية الغربية أعقبتها تدخلات متفرقة وعمليات احتلال لتكريس الأمر الواقع قام بها مشاة البحرية الأمريكية في نيكاراغوا وبنما. ونتيجة للحرب الإسبانية ـ الأمريكية (1898 ـ 1901)، استولت الولايات المتحدة على بورتوريكو وغوام وجزر الفيليبين (امتد ضم الفيليبين إلى الولايات المتحدة حتى عام 1946، وشهد عمليات قمع وحشية للانتفاضات الفليبينية من أجل الاستقلال في القرن العشرين). وفي شتى أنحاء أمريكا اللاتينية، دعمت الحكومات الأمريكية الأنظمة الديكتاتورية وساعدت على إطاحة الحكومات المنتخبة ديمقراطيا (مثل حكومة زيلايو في نيكاراغوا عام 1909، واربينز في غواتيمالا عام 1954، واللليندي في تشيلي عام 1974). أما خليج غوانتانامو في كوبا فقد ظل موقعا لقاعدة عسكرية أمريكية منذ عام 1903 وحتى اليوم.

إذا أضفنا إلى هذا التاريخ إسقاط حكومة مصدق في إيران عام 1954، والدعم اللاحق إلى الحكم الديكتاتوري لشاه إيران رضا بهلوي؛ ودعم الولايات المتحدة لصدام حسين في حربه على إيران (قبل أن يفقد حظوة أمريكا) ــ لا يصعب علينا تصور لماذا يرى سكان الشرق الأوسط الحربين اللتين شنهما بوش الأب ثم بوش الابن على العراق، بوصفهما تجسيدا لآخر الأمثلة على التراث الإمبريالي. لا أقول إن علينا رؤية المسألة من هذا المنظور. لكن النقطة التي أركز عليها هي أن الضحايا يمكن أن يروا المدى الجغرافي المتوسع للغزوات الأمريكية، حتى حين يسميها الزعماء الأمريكيون عمليات «تحرير» ضمن «مسيرة الحرية»، بوصفه استراتيجية كبرى للسيطرة التوسعية على العالم برمته.

يسهل بالطبع على المؤرخين إظهار مدى عجز تعابير مثل «الإبادة الجماعية» و«الرق» و«الإمبريالية» عن وصف تعقيدات الفتوحات التوسعية الأمريكية بأسلوب كاف ومرض، أولا في القارة الأمريكية الشمالية، ثم فيما وراءها. ونحتاج إلى تذكر أن هذه الفتوحات التوسعية ارتبطت بالفتوحات المرافقة التي تنافست فيها القوى الأوروبية في السيطرة على العالم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فضلا على ذلك، من السهل، والضروري، تسليط الضوء على الجدل المؤثر والانشقاق العميق داخل الولايات المتحدة اللذين صاحبا هذه التطورات السياسية والعسكرية. على سبيل المثال، شعر ملك صناعة الفولاذ اندرو كارنيجي بالحزن والقلق بسبب قمع الولايات المتحدة للحرية في الفليبين إلى حد أنه عرض على الرئيس مكينلي عشرين مليون دولارا (ثمن المعاهدة مع إسبانيا)، لكي تعاد البلاد إلى سيطرة حركة الاستقلال الوطنية فيها. لكن

التفكير العلمي «الموضوعي» والمنطق التاريخي لا يفيدان كثيرا حين يتعلق الأمر بفهم مشاعر الضحايا والتأثير الدائم لما يصيبهم من صدمة ومعاناة. فشل عرض كارنيجي السخي، وما أصبح على المحك ليس من هو على «صواب» أو «خطأ»، أو ما هي التعقيدات المتوازنة في مثل هذه الحالات، بل التجارب الفعلية والطريقة الحقيقية التي يتذكرها الناس من خلالها. ولا عزاء لمئات الآلاف من الفليبينيين الذين سقطوا وهم يقاومون الهيمنة الأمريكية، في وجود متعاطفين عاجزين سياسيا داخل الولايات المتحدة ويؤيدون استقلال الفليبين[6].

التذكر الانتقائي: تأويل الإذلال والإنكار

كثيرا ما قيل إن الرابحين لا يكتفون بصنع التاريخ فقط، بل يقررون ما يجب تذكره وما يجب نسيانه من أحداثه. لكن الذكريات لا تخضع للأوامر بمثل هذه الطريقة. إذ تتبع أساليب غامضة ومراوغة للبقاء حية، وإذا لم تعامل بعناية وحرص، يمكن أن تمارس تأثيرا استحواذيا على الحاضر. بادئ ذي بدء، نجد أن جميع الأعمال الفظيعة في ظلمها، مثل الجرائم أو المذابح أو الحروب، ترسخ تاريخا مزدوجا للتذكر. تاريخا من الذنب والعار للجلادين، وآخر من الإذلال والجراح للضحايا. أعتقد أن من الأسهل التعايش مع ذكريات الذنب من ذكريات الإذلال. وفي حين أن الأولى هي سوء استخدام للقوة لا يضعف إمكان الفعل، فإن الثانية هي تجربة من المعاناة تتاخم حدود إصابة الذات بالعجز والشلل.

يكوّن هذا التاريخ المزدوج سلسلة تقيد الطرفين بالماضي وتكبل أحدهما بالآخر، بطرق لا واعية على الأغلب - ومن ثم يسبب الإزعاج والقلق لهما معا.

انطباعي هو أن «الكراهية الحادة» التي تحدث عنها الرئيس بوش في خطبته في تشرين الأول/ أكتوبر 2001، هي تعبير عن/ ونتيجة مؤسفة لهذه «السلسلة من الذكريات». فقد قرر الرئيس أن الطريقة الوحيدة لكسر حلقات هذه «السلسلة» هي الذهاب إلى الحرب «للقضاء على الإرهاب عند جذوره»[7]. لكن ما حققه هو مد هذه السلسلة من الكراهية لتصبح أطول من ذي قبل، وتغدو حلقاتها أثخن وأثقل. هل يمكن كسر هذه السلسلة؟ أنا على قناعة بأن ذلك ممكن ـ لكن ليس بردة الفعل العنيفة بالتأكيد، لأنها ليست سوى تكرار للفعل الشرير الذي زعمت أنها تغالبه. الرد العنيف يفاقم قطبية العداء، في حين أن المصالحة، مع أنها محل ازدراء وسخرية «الرجال القساة» في العالم، طريقة خلاقة لتحرير الطرفين من التأثير الدائم لحالات الظلم الماضية. يمكن للبشر مداواة جراح ذكرياتهم المثبطة. ويمكن للأعداء الألداء أن يتحولوا إلى جيران طيبين وأصدقاء موثوقين. لكن تلك عملية تتطلب نوعا من القوة والقدرة والشجاعة لا يملكه معظم «الرابحين». لسوف أتناول «فن التذكر» هذا بمزيد من الإسهاب في الفصول التالية.

تأويل الإذلال

ما زلت مهتما بفهم الكراهية المسمومة للولايات المتحدة التي يمكن العثور عليها لا في مختلف أرجاء العالم فحسب بل داخل الولايات المتحدة ذاتها أيضا. لسوف نعاين طرفي «السلسلة» كليهما. أولا، على طرف الضحايا، يتضح أن مشاعر الكره والاستياء والريبة هي نتاج مختلف الطرق التي حافظت عبرها تجارب الصدمة المؤلمة والإذلال المهين على وجودها الحي، أو بالأحرى التي تبقي على نفسها حية. لذلك لا يكفي القول إن التذكر هو

بناء أحداث الماضي وكأنه مسألة تتعلق بالقرار الواعي فقط. إذ إن المراوغ والمقلق في القضية أن الدوافع اللاشعورية تؤدي دورها المزعج في صياغة رواية سردية تحافظ على التجارب الموجعة حية ونشيطة. نحن نواجه ظاهرة يمكن أن نسميها «تأويل الإذلال». سأورد هنا ثلاثة جوانب منها فقط:

1) يتعلق قدر كبير من الكراهية التي نجدها في مختلف أرجاء العالم لأمريكا بشعور[9] العديد من الناس الذين لم يعترف أحد بمعاناتهم كما يجب. وهم متأثرون بانطباع مهيج ومثير للغضب يشير إلى أن كرامتهم سحقت وسيادتهم كأمة وبشر ديست بالأقدام. ويعبرون عن استيائهم من غطرسة القوة، والتفوق الساحق الذي يحولهم إلى بشر من الدرجة الثانية في الأهمية. إنها تجربة خصائية إذا جاز التعبير تضعف وتشل الإحساس بالذات. من ميراث أمريكا الملطخ تاريخها الطويل من الإرهاب الداخلي الموجه إلى السود. سلسلة من الجرائم المروعة التي خلفت 3500 قتيل نتيجة عمليات الإعدام الطقسية[10]. ومثلما وصف جوزيف تومان «الرسالة» في كتابه، فإن الملاءات البيضاء والصلبان المحترقة لمنظمة كو كلوكس كلان كانت «رموزا للموت والأذى والدمار الخطير. ورؤيتها في سياق الإعدامات التي ينفذها الغوغاء، والجلد بالسياط، والخصاء، وإطلاق النار، والطعن بالمدى، والضرب، والحرق، تعزز هذه الرمزية»[11] صحيح أن المنظمة هادئة الآن، لكن كيف يمكن لأقارب وأصدقاء الضحايا نسيان مثل هذه التجارب؟ هذا الشعور بالظلم الفادح يصرخ مطالبا بالعدالة، لكن لا توجد عدالة كافية لإنقاذ الذات المعطوبة. ويطالب بالثأر، لكنه يستشعر عبثية المطلب. ولا ريب في أن ذلك كله يثير

مشاعر الغضب العميق المكبوت، الذي لا منفذ له لأن العدو قوي وضخم ومتفوق ويصعب إلحاق الأذى به. لذلك يتناسج الغضب والإحباط. وتفقد الحياة معناها لأن الفشل محوم دوما على الأفق الشخصي؛ وهكذا، يمكن التضحية بالحياة في هجوم انتحاري أو هدرها في تكاسل مدمر للذات.

2) من طرق الخروج من هذا الاضطراب الجواني وضع اللوم كله على «الأجنبي» القوي. فهو المسؤول عن الخطايا والذنوب كلها، حتى تلك المشكلات التي تستطيع «الضحية» معالجتها. وهكذا يصبح «الأجنبي» وراء كل شيء ـ الاستغلال والتلاعب والمناورة والهيمنة المتعمدة. وبذلك يمكن أن يصبح كبش الفداء والمطاردة الشعواء جزءا من اللعبة لاستعادة بعض الإحساس بالموقف. فإذا تعذرت مجابهة العدو نفسه، يمكن التنفيس عن الغضب باتجاه «المتواطئين» معه (عند كتابة هذه الصفحات، كثيرا ما استهدفت الهجمات الانتحارية في العراق رجال الشرطة العراقيين على أساس الاعتقاد بأنهم «متواطئون» مع العدو).

3) يتمثل جزء من تأويل الإذلال والمهانة في بناء صورة مشوهة لـ«العدو». المفكر الراحل إدوارد سعيد يقدم ملاحظة. ويقول إن في معظم البلدان العربية صورة متخيلة ومصطنعة عن أمريكا، صورة كاريكاتورية تقريبا عن حقيقتها. وبالطبع، هنالك شيء من المنطق في ذلك، لأن اختزال صورة الذات للأضعف يترافق بتخيل صورة مشوهة للأقوى لا تترك مساحة كافية للتمايزات أو الاختلافات. كأنما التاريخ قد تجمد. فثقافة الأضعف تستخدم نماذج وصورا ذهنية قديمة العهد مرارا وتكرارا لفهم

التطورات الجديدة. رأيت ذلك في أمريكا اللاتينية أيضا. إذ يمكن اكتشاف نوع من الأبلسة الشمولية الذي يمنع الناس من الاعتراف بالفوارق داخل الولايات المتحدة ويجعلهم عاجزين عن تقدير آراء النقد الذاتي التي يتبناها العديد من الأمريكيين فيما يتعلق بسياسات الحكومة. فإفساح المجال للمقاربات المتنوعة يؤثر في «صورة العدو» ويغيرها.

ثمة خطوة إضافية مطلوبة لإعطاء هذه الأبلسة شكلا دينيا عبر تحويلها إلى شيطنة. وأولئك الذين يسمون أمريكا «الشيطان الأكبر» يوجدون فجوة ميتافيزيقية بين ذواتهم والعدو يستحيل تجسيرها. وفي الحقيقة، لا يفترض بكل ضحية مؤمنة وتقية حتى الرغبة في تجسيرها. إن إدانة الولايات المتحدة بوصفها كيانا يدمج فيه الشر كله يعفي المعتقدين بهذا الرأي من مسؤولية البحث عن طرق لحل المشكلة. وما إن يوسع الصراع إلى مثل هذا الحد الأقصى اللاتاريخي، حتى ينتفي احتمال حله بالوسائل الدنيوية. وتصبح العداوة شاملة ــ «قانونا» للتاريخ.

تأويل الإنكار

ماذا عن عملية التذكر في معسكر المنتصرين؟ انطباعي يشير إلى أن الرواية السردية الرسمية للولايات المتحدة تخضع لهيمنة إحساس بالنجاح بل بالانتصار. ونظرة عريضة وشاملة على تاريخ الولايات المتحدة، منذ بداياتها حتى تحولها إلى القوة العظمى الوحيدة في العالم، لا تكشف إلا عن تقدم لا يمكن وقفه، وباللغة الدينية، لا تظهر إلا بينة دامغة على النعم الإلهية والاستثنائية الفريدة المباركة. ما الذي تفعله هذه الرواية

السردية لجانبها المظلم الوحشي، المتمثل في ميراث الإبادة الجماعية والرق والفتوحات التوسعية الإمبريالية؟ يمكن رؤية ردة الفعل المهيمنة بوصفها إنكارا[13]. كيف يعمل؟ لـ«تأويل الإنكار» عدة وجوه، أحسب أن التالية أهمها.

أول طريقة للإنكار هي إعلان التاريخ غير ذي أهمية. ولربما يكون ذلك رد فعل غريزي لمن لا يرغب بتذكر مشاعر انقطاع الجذور القديمة العهد. ومثلما اقترحت في مقدمة هذا الكتاب، يمكن للآلام الخفية للحياة المضطربة أن تتحول إلى رغبة عامة في عدم النظر إلى الماضي. وحين نجعل التاريخ غير ذي أهمية، تصبح دراسته غير ذات صلة أيضا. لكن تجاهل التاريخ طريقة من طرق تجنب الرسائل التي تقلق راحتنا اللاشرعية. مرة أخرى نقول إن العديد من مواطني الولايات المتحدة لا يميلون كثيرا إلى معاينة تاريخ بلدهم بتعمق (حتى وإن أتاحت لهم مدارسهم الفرصة لذلك)، لأن قصتهم ضمن هذا التاريخ الأوسع قصيرة جدا. ولربما لا تجد الجماعات المهاجرة الكبيرة القادمة من آسيا أو أمريكا اللاتينية سببا وجيها للارتباط الكامل بذلك الجزء من التاريخ الأمريكي الذي يشمل «الإبادة الجماعية» و«الرق» و«الإمبريالية» إذ لا يقتصر الأمر على أن ذلك يبدو من الماضي البعيد؛ بل الأهم أن لديهم تجاربهم الخاصة مع التمييز العنصري لتفاديها. فضلا على ذلك، من المرجح أنهم يأتون إلى أمريكا، برأيهم، بحثا عن فرصة، لا للمشاركة في تحمل مسؤولية ميراث الماضي البعيد.

يصعب إنكار حقيقة أن معظم الأمريكيين لا يملكون الوقت أو الميل لدراسة ما فعلته الفتوحات التوسعية الإمبريالية بالشعوب في قارة

أمريكا الشمالية أو القارات البعيدة. ومثلما هي الحال لدى الأمم الأخرى، يعتمد رأي عامة الناس على موثوقية الزعماء السياسيين ومعولية قطاع التعليم ووسائل الإعلام للحصول على أدلة وبينات تشير إلى ما فعلته بلادهم، وما تفعله، في شتى أنحاء العالم. لكنني أجد شيئا واحدا يصعب فهمه هو أن أعضاء في الكونغرس الأمريكي تباهوا فعلا بأنهم لا يملكون جوازات سفر. أي أنهم لم يسافروا خارج البلاد قط. وهذا يعني ضمنا أنهم لا يأبهون حتى بمعرفة تلك الأجزاء من العالم التي تتأثر تأثرا عميقا بقراراتهم. هذا النوع من الجهل العنيد والمقصود يعد جزءا من الفشل في تحمل المسؤولية الشخصية عن المضامين البعيدة المدى لسياساتهم. فعدم الاهتمام بالمعرفة هو تعبير توكيدي عن الإنكار.

هنالك دافع قوي لإنكار الجوانب المروعة والمشؤومة من تاريخ الولايات المتحدة تمثله المسيحانية المتأصلة في «التجربة الأمريكية». ومثلما ناقشنا في الفصل الأول، فإن الرسالة المقدسة تجعل رسلها «أخيارا» يتأصل فيهم الصلاح (انظر بيان الرئيس بوش الوارد في بداية هذا الفصل)؛ ويتضمن هذا الخيرُ والصلاحُ البراءةَ. ولربما تكون الأفعال التي ترتكب في المسعى لإنجاز هذه المهمة المقدسة «فوضوية»، من المؤكد أن الأخطاء يتعذر تجنبها. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد شيء اسمه ذنب مدمج أو وطني. ومثلما ناقشنا في الفصل السابق، تتضمن أسطورة البطل الأمريكي الخارق موقفا يتجاوز القوانين التي تحكم المجتمعات المحلية العادية. البطل الخارق يتصرف باسم «حقه» المتفوق الجواني ومن ثم لا يمكن وقفه بواسطة الهواجس المشروعة لـ«الخاسرين»، أو توجس أولئك الذين

يصرون على التمايزات والإجراءات القانونية. تضع هذه البنية الأسطورية البطل خارج نطاق المعضلة الإنسانية، معضلة الصواب والخطأ. فهو يظل بريئا، بغض النظر عن العنف الذي ربما «تحتاج» إليه أفعاله. تعد هذه البنية أيضا شكلا من أشكال الإنكار. فهي تعبر عن الاعتقاد الموهوم بأن السلوك «البطولي الخارق» يمكن أن يظل إلى الأبد نقيا وطاهرا من دنس وفساد الفوضى الدنيوية. المسؤولون عن الشؤون القانونية في البيت الأبيض، في بحثهم عن طريق لتفادي أي محاسبة أو مسؤولية جنائية للرئيس بسبب الموافقة على ممارسات التعذيب التي تنتهك القوانين والتشريعات الأمريكية، عبروا عن المسألة كالتالي: «في ضوء صلاحية الرئيس الكاملة وسلطته فيما يتعلق بإدارة الحرب، لا يوجد قانون جنائي ينتهك سلطة الرئيس المطلقة في مثل هذه المجالات»[14]. في هذه البنية، يكون البطل فعلا فوق القانون ـ البشري أو الإلهي.

الوجه الآخر لهذه البراءة المسيحانية يشير إلى وجوب لوم الأعداء، الضحايا، على دمهم المسفوك. هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في طريق «الحملة» المقدسة من أجل الحرية والتقدم، يمثلون «قوى الظلام»، حتى وإن لم ينتموا إلى «محور الشر». والبنية الأسطورية التي تسبغ البراءة على البطل الخارق تضع مسؤولية التضحيات على عاتق الأعداء والخصوم.

يجد هذا الإطار الأسطوري من الإنكار تسويغه الميتافيزيقي في سيناريوهات نهاية الزمان التي تناولناها في الفصل الثاني. فحالما توضع الشؤون الدنيوية ضمن إطار الحرب النهائية بين المسيح والمسيح الدجال، تنتفي الحاجة إلى محاسبة اللاعبين التاريخيين على سيئاتهم. وتصبح المحاسبة الختامية في أيدي القوى الغيبية الميتافيزيقية. أما «تأويل الإنكار»

فيكتسب ضرورته العاجلة والملحة من التوتر بين وعد البراءة المأمول وواقع الفشل المعيوش. وفي الحقيقة، كلما تعاظم الزعم بالطيبة والصلاح والخير، زاد إلحاح الحاجة إلى «محو» ذكريات الأخطاء والشرور. آلية عمل هذه «الحاجة» وصفها كريغ ميتشل وروبرت ليفتون في كتابهما «هيروشيما في أمريكا: خمسون سنة من الإنكار»[15]. الدراسة استمدت إلهامها من الطريقة التي جرى فيها رسميا كبت ومنع إقامة معهد سميثونيان لمعرض في عام 1995 بمناسبة الذكرى الخمسين لإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. خطة المعهد الأصلية لم تقتصر على عرض الطائرة (اينولا غاي) التي حملت القنبلة الذرية إلى المدينة اليابانية، والوثائق المتصلة بهذه الرحلة المشؤومة فقط. بل أراد المنظمون توضيح تأثيرات القنبلة في بؤرة الدمار؛ بكلمات أخرى، أرادوا تقديم صور مروعة للتدمير والمعاناة الإنسانية لليابانيين.

تدخلت جمعيات المحاربين القدماء والعناصر النافذة في إدارة كلينتون[16] لضمان عدم تنظيم نشاطات المعرض كما خطط لها.

يقول ليفتون وميتشيل:

> منذ بداية العصر الذري، لم تعرض على الأمريكيين التأثيرات الإنسانية للقنبلة. وهذا ما عزز المعارضة النفسية لفهم ومعرفة الرعب في هيروشيما. بعد خمسين سنة تقريبا، عادت الدوافع نفسها لتفعل فعلها في الجدل حول معرض سميثونيان. أزال المنظمون من المعرض ـ استجابة للضغوط ـ كل صورة تظهر القتلى أو المصابين بجراح خطرة من المدنيين اليابانيين. هنالك إحجام ما يزال قويا حتى اليوم عن مواجهة

ما فعلته أمريكا، أو تبريره بطريقة مباشرة، بل إن الأمريكيين يتمنون أن تختفي المسألة برمتها[17].

هذا المزيج من الإحجام وتبرئة الذات والتفكير المتعلل بالأماني هو السمة المميزة للإنكار. ويقدم ميتشيل وليفتون الحجة على أن هيروشيما تشكل هاجسا مسيطرا وحاضرا لأنها تذكر الأمريكيين بمعضلتهم العميقة الغور: الأمة الفخورة بخيرها وصلاحها وطيبتها ارتكبت جريمة غير مسبوقة في التاريخ، جريمة استخدمت أسلحة «الدمار الشامل» لذبح مئات الآلاف من المدنيين اليابانيين العزل. يتابع ليفتون وميتشيل:

فعلنا شيئا يبدو أنه يعرض العالم برمته للخطر. مشاعر اتهام الذات هذه تصبح مؤلمة أيضا نتيجة إحساسنا بأننا شعب خير وصالح على نحو خاص، شعب يعيش دوما في الحقيقة ببركة الله. هذه الصورة الذاتية الوطنية، مهما كانت خداعة، تثير آليا أسئلة تتعلق بالخير والشر: «إذا كنا قد ناضلنا لإقامة مملكة النعيم على الأرض، فقد كنا مستعدين لاستعارة أدواتنا من مملكة الجحيم»، كما قال أحد المراقبين. ولذلك، فإن زعمنا بالفضيلة يمكن أن يسهم بشعور الانحطاط الروحي، الذي يتفاقم عند إدراك عجز زعمائنا السياسيين والدينيين عن مساعدتنا على النظر في المسائل الأخلاقية المظلمة[18].

بالنسبة لروبرت ليفتون المتخصص في علم النفس، فإن أكثر تعبيرات الإنكار إثارة للقلق حقيقة أن القوة الفتاكة للقنبلة النووية يمكن تحويلها، وحولت فعلا، إلى موضوع للرغبة ونالت إعجابا شديدا كأداة للخلاص.

في تأويل الإنكار، يصبح التدمير «حلا» نهائيا وإطلاقيا: فهو يعني تبني القنبلة بسبب قدرتها المهلكة الفتاكة، وتبجيلها بسبب قدرتها على إبادة كل شيء عند هذه نقطة يمكن دمج سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية مع صور الدمار النووي؛ ويصبح أشد ما يرعب الناس أكثر ما يرغبون به ويطلبونه.

من أجل نعمة الله ورحمته: التذكر العميق

«لماذا يكرهوننا؟». هذا هو السؤال الذي أحاول الإجابة عنه. الملاحظة الأولى تشير إلى أن كل جريمة كبرى تنتج تاريخا مزدوجا، واحدا لكبت الذنب/العار/الندم، وآخر للإذلال المتشبث بالذاكرة والجراح التي لا تندمل. أدى ذلك إلى فكرة أن «التواريخ» تنتج «تأويلاتها» الخاصة بها، أي عملية تفسير تفرز ما سمي أيضا بـ«روايتها السردية» المحددة. لهذا السبب تحيك الأسر حكايات خاصة عن الجراح التي أصابتها. وترسخ الأمم خرافات وأساطير معقدة عن الأحداث التي وقعت لها قبل قرون. على سبيل المثال، في العملية الطويلة للتفسير التاريخي، كما ذكرت آنفا، خلق الصرب أسطورة التضحية الوطنية بأنفسهم اعتمادا على حدث وقع قبل أكثر من ستة قرون: معركة كوسوفو (1389)، حيث هزم الجيش الصربي أمام الجيوش العثمانية الزاحفة. إذ عدوا أنفسهم المدافعين عن أوروبا المسيحية، التي لم ترد الجميل لهم أبدا. قابلت أشخاصا في ايرلندا تحدثوا إلي عما فعله اوليفر كروميل «بنا»، كأنما حدث ذلك أمس (غزا كروميل ايرلندا عام 1649!). هذا تأويل للإذلال والمهانة، والشكل المقارن منه يمكن العثور عليه في البلدان العربية، حيث يفسر المظلومون

الانحطاط المستمر للإمبراطورية الإسلامية التي كانت عظيمة ذات يوم بوصفه شيئا حدث نتيجة القوى «الصليبية» الخارجية وحدها.

من ناحية أخرى، أعتقد أن صناع الأسطورة في أمريكا استطاعوا تطوير تأويل للإنكار، يركز على نهوض أمريكا المتعذر وقفه إلى مصاف القوة العظمى العالمية، في حين يحاول تجاهل العنف الذي ساعدها لاكتساب هذه المكانة. كلا النوعين من التأويل يؤمثل ذكريات انتقائية. ومع أن ذلك قد يبدو أكاديميا، إلا أنه وثيق الصلة بالطرق التي تستخدمها الشعوب والأمم للتفكير والاتصال بعضها ببعض. فحتى حين نميز بين تأويل الإذلال وتأويل الإنكار، نحتاج إلى إدراك أن النوعين يظلان جزءا من السلسلة التي تربط بعض الأمم برباط من العداء والخصومة. وهي تعيد في الحقيقة بناء وتقوية الروابط فيما بينها. وبقدر ما يرغب الجلادون والضحايا في الاستقلال بعضهم عن بعض، فإن هذه «السلسلة» تحاصرهم في عناق مرعب ـ ومهلك في كثير من الأحيان.

إذن، يديم التذكر الانتقائي ويمكّن عملية مستمرة من «التقطيع». إذ يشكل الشك والريبة والعداء وانعدام الثقة البيئة البدائية التي تسمم باستمرار العلاقات بين البلاد المتشبثة بتفسيراتها الخاصة للتاريخ. على سبيل المثال، بقيت العلاقات بين ايرلندا وبريطانيا متوترة طوال عقود من السنين: فمع أن كلا منهما عضو في الاتحاد الأوروبي، إلا أن العداوات والأحكام المسبقة القديمة العهد لم تختف أبدا. المثال الآخر يجسده الوضع في يوغسلافيا السابقة. فمع أن هذا البلد المؤلف من قوميات واثنيات مختلفة بقي دولة موحدة منذ عام 1946 حتى عام 1991 واستطاع كبت مشاعر الكراهية التاريخية؛ إلا أنها تفجرت من

الداخل حين انقسمت يوغسلافيا إلى جمهوريات انفصالية بين عامي 1991 ــ 1992. والآن يتطلب الأمر ضغطا دوليا هائلا لإيجاد مساحة (محفوفة بالخطر) يمكن فيها للصرب والكروات والبوسنيين والألبان العيش جنبا إلى جنب. فتاريخهم القائم على «التقطيع» يمنعهم من العيش بسلام معا.

أشير إلى هذه الأمثلة الأوروبية لكي أبين أن مشاعر الكره والاستياء التي يظهرها العديد من الناس في شتى أنحاء العالم للولايات المتحدة اليوم ليست ظاهرة فريدة على الإطلاق. لكنها منذرة بالخطر، لأن القوة التصادمية الكامنة في مثل عمليات «التقطيع» هذه على قدر كبير من العنف والشدة.

إذن، لماذا هذا القدر من الكراهية؟ برأيي أننا حين نعاين المكونات التأويلية للإذلال والإنكار، نشعر «بمنطق سوء الفهم» الذي يحافظ على عملية «التقطيع» وقواها الجاذبة حية ونشيطة. هذا المنطق يلون كل شيء يسمعه الناس في الشرق الأوسط فيما يتعلق بمكانتهم كشعب. وهكذا، حين يسمعون الرئيس بوش يتحدث عن «الديمقراطية»، يفهمون أنها تعني قمعهم واضطهادهم. وحين يتكلم عن «الحرية» يفهمون أنها تعني معتقل أبو غريب. في منطق سوء الفهم، تكتسب الكلمات والمفاهيم مداليل مختلفة ــ إن لم تكن معاكسة ــ تعبر عن تاريخ الآمال أو المظالم المرتبط بالعلاقة.

يصدق ذلك على الولايات المتحدة أيضا: فتأويل الإنكار يمنعها من رؤية تأثير قوتها في الشعوب الضعيفة أو الأمم العاجزة، ويحول بينها وبين الشعور بحاجاتها وأهدافها المحددة. ويفاقم التناقضات والتشويهات في الأجندة السياسية. لذلك، فإن من المنطقي الافتراض أنها شعرت

بـ«التقطيع» نتيجة هجمات الحادي عشر من سبتمبر: وارتكز هذا الشعور على الوهم المريح بالعيش في حيز منيع لا يمكن اختراقه يقع خارج وفوق باقي البشر. من الواضح أننا لا نتحدث هنا عن الكلمات أو المفاهيم. فـ«منطق سوء الفهم» يؤدي إلى المعلومات المغلوطة والأفعال الخاطئة. ومقالة الرئيس السابق جيمي كارتر في صحيفة لوس أنجلوس تايمز التي حملت عنوان «هذه ليست أمريكا الحقيقية» برهان بليغ على التناقض المتنامي بين الصورة الذاتية التقليدية لأمريكا بوصفها «المدافع الذي لا يلين عن السلام والحرية وحقوق الإنسان»، وبين تجاهل إدارة بوش لمعاهدة جنيف لعام 1949 فيما يتعلق بأسرى الحرب، فضلا على تأييدها العلني للتعذيب في العراق وأفغانستان وغوانتانامو وغيرها[20]. يقدم كارتر المزيد من الأمثلة التي لا نحتاج إلى تكرارها هنا. أما تصريحه المعبر عن الهم والكرب فقد أكدته ملاحظة للفيلسوف الاجتماعي الألماني الشهير يورغن هابرماس: «السلطة المعيارية لأمريكا في حالة من الخراب والفوضى العارمة»[21].

النقطة التي أريد توكيدها هنا هي ضرورة عدم التقليل من شأن عمليات «التقطيع» القديمة العهد. فقوتها التدميرية تفاقم العنف الذي يربط الجلادين والضحايا، و«الرابحين» و«الخاسرين» معا. وآخر تمظهراتها الحرب العالمية على الإرهاب: إذ تدرك أعداد متزايدة من الناس أن هذه «الحرب» لا يمكن كسبها؛ فهي تؤدي إلى طريق مسدود بالمعنى الدقيق للكلمة.

ما الذي يمكن فعله لمغالبة عمليات «التقطيع» والبتر المدمرة للذات؟ أعتقد أن الجواب يكمن في التذكر العميق[22]. ولسوف أوضح ذلك بالقول

إنني أعني بالتذكر «التوصيل»، أو إعادة وصل الأعضاء المقطعة والمبتورة (أي عملية معاكسة لـ«التقطيع»). فالتذكر أكثر من مجرد دراسة الأحداث الماضية؛ فهو يتعلق بوصل أنفسنا بالأحداث والعمليات التي كونت الظروف التي نعيش فيها حاليا. والتذكر العميق يتضمن بالطبع إضافة الجوانب المظلمة من تاريخنا. نحن بحاجة إلى النظر مباشرة في تلك الأشياء التي نرغب في نسيانها، لأنها بالضبط الجوانب التي لا تلائم الصورة التي نريدها عن أنفسنا. الجرائم والمذابح وأنظمة القمع والازدراء ـ نحتاج إلى تذكر («وصل») هذه الجوانب الفظيعة والمشؤومة من ماضينا مع الجوانب البناءة والمثمرة من حياتنا وتاريخنا الوطني.

لست مهتما بجلد الذات؛ بل أبحث عن استراتيجيات للذاكرة تصلنا بطريقة بناءة مع ميراثنا المشرق والمظلم. إن أخذ التذكر العميق على محمل الجد سوف يمكننا من ضم الآخرين، الأجانب والغرباء، وحتى الأعداء، وإدراك قواهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم. التذكر والوصل مرتبطان معا: الماضي يصبح جزءا لا يتجزأ من ظرفنا الحاضر. هذه العملية ستتيح لنا مغالبة عمليات التقطيع والبتر المعيقة التي توقع الفوضى والاضطراب. وفي حين أن الإنكار يكبل الناس بالماضي، فإن التذكر العميق طريقة، وإن مؤلمة، لتحريرهم من هذا الأسر للتوصل إلى إدراك واع أكثر صدقا وأمانة بالآخر وبالذات.

أعتقد أن من العدل القول إن بلدي انخرط في هذا التذكر العميق. فقد حاولت المانيا جاهدة الاعتراف بكل شجاعة بجرائم هتلر والجيش النازي، وفظائع المحرقة[23]. أنا لا أزعم أن الألمان انخرطوا في هذه

العملية بالإجماع، أو أنها اكتملت. في الحقيقة، لا توجد نهاية للتذكر وإعادة وصل المبتور؛ فهي مهمة مستمرة ومتواصلة. هذا هو السياق الذي أنطلق منه لاقتراح أن مثل هذا الفهم للتذكر العميق يمكن أن يطبق على الولايات المتحدة. اقتراحي يردد أصداء سؤال دونالد شريفر: «هل توجد صيغة لموالفة مشاعر العار مع الفخر لتغل وطنية صادقة؟»[24].

ملاحظاتي في الفصول الثلاثة الأولى فيما يتعلق بالمسيحانية الأمريكية، وتشويهاتها وتحريفاتها الرؤيوية، وتسطيحها البطولي الخارق، قادتني إلى استنتاج وجود حاجة إلى طريقة لوصل الشعور بالعظمة مع الذنب، والتقدم والنجاح مع التراجع والفشل. فمن الممكن أن نرتع في نعمة الله ورحمته وبركته، وفي الوقت ذاته نواجه بأمانة الشر الذي ارتكب. المزاعم المسيحانية بالخير والطيبة يجب مصالحتها مع الفظائع المرتكبة. قد يبدو ذلك مستحيلا. لكن جوابي كمسيحي هو أن العيش في نعمة الله ورحمته وارتكاب الذنوب والمعاصي ليس أمرا ممكنا فقط بل محتوما يتعذر اجتنابه في الحقيقة. هذه هي القوة الحقيقية للإيمان المسيحي: رحمة الله واسعة إلى حد القبول بخطايا البشر ومنحهم الفرصة لتغيير أساليبهم. هذا هو معنى التوبة والهداية. هنالك قول مأثور لأحد الحاخامات القدماء يعبر عن ذلك: «قبل أن يخلق الله الخليفة خلق التغيير والهداية». بكلمات أخرى، إمكانية تغيير المدركات وتبديل أنماط السلوك، والتوبة عن أعمال الشر، والسعي وراء الطرق الكفيلة بتخفيف أثرها المدمر ـ كل ذلك جزء مدمج في خلق الله. أما الجبرية والقدر المحتوم فيتعارضان مع رحمة الله بعباده ونعمته التي يغمرهم بها؛ البداية الجديدة ممكنة. ولا يوجد طريق ضيق مسدود يمنعنا من الانعطاف.

لأولئك الذين يجدون ذلك كله ادعاء مغاليا في التقوى، سوف أقتبس من عالم النفس (العلماني) روبرت جاي ليفتون، الفقرة الآتية:

> البديل الأفضل هو قبول حد معين من الغموض وعدم اليقين، درجة معينة من العناصر المحتومة التي تسبب التشوش والتناقض، فيما يتعلق بالأحداث التاريخية الجسام أو شؤون التجربة الشخصية.. كثيرا ما أنكر احتمال مثل هذا القبول بالغموض لأن القوى العظمى، مثل الأمم، والشعوب، لا تشعر بالارتياح معه.. الغموض في الحقيقة أمر مركزي للوظيفة البشرية، تقر به وتوفره المؤسسات والممارسات الثقافية في كل مكان[25].

لكن اللغة العلمانية التي يستخدمها عالم النفس ليست كافية. فـ«الغموض» ليس كافيا للتعبير عن المعضلة الأخلاقية العميقة التي تواجه البشر والأمم والقوى الكبرى حين تجابه حقيقة أن الشر المتعمد قد وقع. هذا واقع حقيقي كثيرا ما خلط مع «الأخطاء» أو «الأغلاط». لكن في حين أن الأخطاء ترتكب عن غير قصد، فإن الشر نتاج عمل واع ومقصود وخطة مرسومة. ومن المؤكد أن للأخطاء تأثيرات كارثية محتملة، لكن تأثيرها الأخلاقي مختلف عن تأثير الأعمال الشريرة. لهذا الشر المتعمد والمقصود استخدمت تعبير «الذنب» في مناسبات متنوعة. لكن ليس من النادر سماع مواطني الولايات المتحدة يطرحون مثل هذه الأسئلة الساخطة: «كيف أكون مذنبا بجرائم الإبادة الجماعية التي استهدفت شعوب وقبائل سكان أمريكا الأصليين؟ أو الرق؟ ذلك كله حدث قبل عقود أو قرون من مولدي! كيف يمكن أن أحمل مسؤولية الفتوحات التوسعية الإمبريالية للولايات

المتحدة في الأراضي الأجنبية؟ فإذا ارتكبت فظائع كيف لي أن أعرف ـ أو ألام؟ لذلك، من المناسب تقدم تعليق شارح هنا.

في عام 1946، بعد سنة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، حين بدأت تتكشف الأعمال الإجرامية الفظيعة التي ارتكبت في الحقبة النازية، استهل الفيلسوف الألماني كارل يسبرز عمله التدريسي في جامعة هايدلبرغ بمحاضرة تحولت إلى كتاب بعنوان «مسألة الذنب الألماني»[26]. انتشر الكتاب على نطاق واسع، واقترح يسبرز فيه أن نميز بين أربعة نماذج مختلفة من الذنب.

الأول هو الذنب الناتج عن ارتكاب جنح جنائية؛ وندعوه الذنب الجنائي. من المقبول عموما أن المكان المناسب للتعامل مع هذا النوع من الذنب هو المحاكم. هنالك صعوبات مستمرة فيما يتعلق بفكرة «الذنب الجنائي» وهل يطبق على الجرائم السياسية، مثل الحروب أو المذابح أو النشاط السري، مثل التعذيب. لذلك، حوكم الزعماء النازيون البارزون أمام محكمة نورمبرغ، حيث اتهموا وأدينوا بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وسواها من الجرائم ذات الصلة، أما نتائج هذه الإجراءات القضائية فبدت طوال عقود من السنين طريقة مرضية لمحاسبة البشر على أعمالهم. ومن ثم، أنشئت محكمة الجنايات الدولية بعد عملية تحضيرية صعبة في لاهاي (آذار/ مارس 2003)، كمنتدى دولي يحاكم أمامه المسؤولون عن ارتكاب جرائم مماثلة. لكن حتى الآن، رفضت الولايات المتحدة الانضمام إلى هذه المحكمة، على الرغم من أن القضاة الأمريكيين كانوا الأبرز في محاكمات نورمبرغ، والخبراء القانونيين الأمريكيين لعبوا دورا رائدا في وضع القانون الدولي. رفض التعاون هذا يعده الكثيرون في المجتمع الدولي

إشارة دلالية على أن الولايات المتحدة تغتصب «الحق» في استثناء نفسها من الإطار المعياري للقانون الدولي.

النمط الثاني من الذنب برأي يسبرز هو الذنب السياسي. وهو يشير إلى أفعال السياسيين التي يحمل المواطنون المسؤولية عنها. في هذه الفئة، يمكن وضع العقوبات المفروضة على شعب كطريقة لمعاقبة قادته وزعمائه. العقوبات الدولية التي فرضت على النظام العنصري في جنوب إفريقية أو على النظام الديكتاتوري لصدام حسين أو فيدل كاسترو، أدت إلى معاناة الشعب بسبب جرائم ارتكبها زعماؤه.

الفئة الثالثة برأي يسبر يمثلها الذنب الأخلاقي. «المحكمة» التي تنطق الحكم في هذه الفئة هي ضمير كل فرد.

أخيرا، يتحدث يسبرز عن الذنب الميتافيزيقي الماورائي. هذا المفهوم يصف المسؤولية المشتركة لكل إنسان عن الشر الذي ارتكب. و«المحكمة» و«الحاكم» الوحيد الذي يمكن أن يتعامل مع هذا الذنب هو الله سبحانه وتعالى.

هل يمكن تطبيق حجة يسبرز على الولايات المتحدة؟ عنوان الترجمة الإنكليزية لكتابه يقترح على ما يبدو أن يسبرز يشير حصرا إلى «الذنب الألماني». وفي الحقيقة، تحدث يسبرز عن «مسألة الذنب». وعلى الرغم من أن السياق المباشر لتأملاته كان الحقبة النازية (1933 ـ 1945)، إلا أن من الواضح لي أنه كان يتعامل مع الذنب كظرف إنساني عام. وإلا، يجب أن نستنتج أن الذنب شيء لا يمكن تطبيقه إلا على «الخاسرين» لا على «الرابحين». أعتقد أن فكرة يسبرز عن الذنب يمكن تطبيقها على كل الشر البشري، بغض النظر عن السياقات والذرائع المستخدمة لتأطيره.

لا أقترح وجود تشابه بين الولايات المتحدة وألمانيا النازية. إذ يبقى ذنب المانيا كما هو ـ جريمة مروعة لا مثيل لها. في الوقت ذاته، يبقى ذنب الولايات المتحدة كما هو أيضا: مكتوب ضمن تاريخ الولايات المتحدة كجانب شبحي ظليل لارتقائها إلى مرتبة التفوق على القوى العسكرية الكبرى. نحن الألمان بحاجة إلى مواجهة ذنبنا التاريخي في كل فئة من الفئات الأربع التي اقترحها هابرماس. لقد فعلنا ذلك في الحقيقة بدرجات متفاوتة ـ مضطرين بالطبع بسبب حقيقة أن المانيا هي الخاسر الأكبر في الحرب العالمية الثانية. عبء الهزيمة أجبرنا على الانخراط في هذا العمل بطريقة أعمق من الأمم الأخرى التي اضطرت لذلك. لكن أود الإصرار على أن مواجهة الذنب يجب أن تبقى مستقلة عن النصر أو الهزيمة. فهي أمر يتعلق بالأمانة الأخلاقية التي تقع في صميم إنسانيتنا. ولذلك فإن كل مواطن في الولايات المتحدة، مثله مثل جميع المواطنين في البلدان الأخرى، بحاجة إلى مواجهة ذاتية مع الذنب المتعلق بالأفعال الخاطئة والآثام التي ارتكبت.

وفقا لتصنيفات يسبرز، من الواضح أنه لا يمكن تحميل المواطن الأمريكي اليوم الذنب الجنائي على الفظائع التي ارتكبها أسلافه. لكن جميع مواطني الولايات المتحدة مسؤولون سياسيا وأخلاقيا عن التأثيرات البعيدة المدى لشرور الماضي التي سمحوا ببقائها. مسألة الذنب الميتافيزيقي الماورائي من نظام مختلف، وسيرد الناس عليها وفقا لتوجهاتهم الدينية. لكن أريد أن أضيف أن مواقف كتاب سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية تعبر عن الإنكار. فالمؤمن بنهاية الزمن يضع المسؤولية النهائية للشر في العالم على عاتق المسيح الدجال ومن ثم يعفي قلة أنقذت (أو «اصطفيت») من الناس من المحاسبة الدنيوية.

على المستوى الروحاني، تخاطب فكرة الذنب جميع البشر الذين يشتركون في الصفات والسمات الأساسية ذاتها: فهي تذكرنا جميعا بضعفنا الجوهري وسهولة استسلامنا للغواية. هذا التفكير التأملي ليس نظرة تشاؤمية وتلذذا بالضعف المتأصل في البشر بدعوته المغرية إلى العطالة والكسل . بل على العكس، فهو يجسد اتصالا مؤسسا على الأمانة والصدق، وبذلك يفتح السبل أمام مزيد من العلاقات التي يمكن أن يعول عليها.

هل يمكن وقف العمليات المدمرة لـ«التقطيع» والبتر؟ أو بأسلوب أكثر إيجابية، هل نستطيع الانتقال من التأويل التصادمي للإنكار والإذلال إلى التذكر العميق الذي يمكننا من تمييز الحقيقة المتعلقة بنا (وبالأعداء داخلنا) وبأعدائنا (وبأنفسنا داخل الأعداء)؟ أنا مقتنع بأن بمقدورنا القيام بذلك. وهذه القناعة مرتكزة على افتراض أن كل ما نفعله كأفراد أو كأمم يجب أن يبدأ من الاعتراف بأننا كلٌ واحد في الجوهر، أعضاء في العائلة الإنسانية. وهذا سيكون، ويجب أن يكون، عنصرا كابحا لـ«الرسالات والمهمات» و«الحظوظ والثروات» التي ستغري الشعوب والأمم بالسعي وراءها إلى الأبد.

هوامش

1- انظر:

George W. Bush, «President Holds Prime Time News Conference, October 11, 2001» (White House release: http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/10/7-20011011.html [accessed Oct. 17, 2005]).

2- انظر تفسير ليكوف النقدي لـ«نموذج الأب الصارم»، والرابطة بين الصلاح والنجاح ونقلها إلى المستوى السياسي:

George Lakeoff, Don't Think of an Elephant! Know Your Values and Frame the Debate (White River Junction, VT: Chelsea Green Publishing, 2004), pp. 6ff.

3- انظر:

David Frum and Richard Perle, An End to Evil: How to Win the War on Terror (New York: Random House, 2003), p. 246.

4- Frum and Perle, An End to Evil, p. 275.

5- Frum and Perle, An End to Evil, p. 236.

6- ثمة مصادر عديدة تناولت التمرد في الفليبين ودور المناهضين للاستعمار في معارضته، منها مثلا:

Walter LaFeber, The American Age: U.S. Foreign Policy at Home and Abroad, 1750 to Present New York: W. W. Norton, 1989).

7- انظر:

«National Strategy for Combating Terrorism» (White House Press release, Feb. 2003: http://www.whitehouse.gov/news/releases/200302/ /counter _ terrorism/introduction.pdf [accessed Sept. 28, 2005]).

8- وصفت هذا العمليات بمزيد من التفصيل في:

Muller-Fahrenholz, The Art of Forgiveness: Theological Reflections on Healing and Reconciliation (Geneva: WCC Publications, 1997).

9- استخدم تعبير «الشعور» لأنه يشير إلى «المستوى الجواني» الذي تتمركز فيه وتتغذى الدوافع القوية مثلا الكره. التذكر أشد ارتباطا بالشعور منه بالتفكير، وبالغريزة اللامتبلرة من الرؤية النقدية.

10- انظر:

Robert L. Zangrando, «Lynching,» in The Reader's Companion to American History, Eric Foner and John A. Garraty, eds. (New York: Houghton Mifflin, 1991).

11- Joseph S. Tuman, Communication Terror (Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998), p. 58.

12- انظر:

Amin Maalouf, The Crusades Through Arab Eyes (New York: Schocken, 1984), p. XX.

13- صعوبة التوصل إلى تقويم نزيه وصادق للشرور المخبأة في ماضي الولايات المتحدة تتضح في كتاب دونالد شريفر. انظر:

Honest Patriots: Loving a Country Enough to Remember Its Misdeeds (New York: Oxford University Press, 2004).

14- انظر:

«Memo for Alberto O. Gonzales, Counsel to the President, Aug. 1, 2002.» Posted by PBS/Frontline: http://news.findlaw.com/hdocs/docs/doj/bybee80102mem.pdf

15- Robert Jay Lifton and Greg Mitchell, Hiroshima in America: Fifty Years of Denial (New York: G. P. Putman, 1995).

16- Lifton and Mitchell, Hiroshima, pp. 288, 295.

17- Lifton and Mitchell, Hiroshima, p. xv.

18- Lifton and Mitchell, Hiroshima, p. 309.

19- Lifton has called this faith «nuclearism»;

انظر:

Robert J. Lifton and Richard Falk, Indefensible Weapons: The Political and Psychological Case Against Nuclearism (New York: Basic Books, 1982).

انظر أيضا:

Robert Jay Lifton, The Broken Connection: On Death and the Continuity of Life (New York: Basic Books, 1983), pp. 369 - 87; and

Lifton, Superpower Syndrome: America's Apocalyptic Confrontation with the World (New York: Thunder's Mouth Press/Nation Books, 2003).

20- Jimmy Carter, «This Isn't the Real America,» Los Angeles Times Nov. 14, 2005).

انظر كتاب كارتر الأخير:

Our Endangered Values: America's Moral Crisis (New York: Simon & Schuster, 2005).

21- انظر:

Jurgen Habermas, in the Frankfurter Allgemeine Zeitung, Apri. 17, 2003 (quoted by Hans-Eckehard Bahr, Erbarmen mit Amerika: Deutsche Alternativen [Berlin: Aufbau-Verlag, 2003], p. 50).

22- Muller-Fahrenholz, The Art of Forgiveness, part Two: «Deep Remembering in Politics and Public Life,» pp. 42 - 101.

23- على مدى سنين عديدة، كان يقام معرض شامل متجول حمل عنوان «جرائم الجيش النازي» زار خلالها المدن الألمانية والبلدان الأخرى أيضا. ثمة صورة أوسع عرضها دونالد شريفر في كتابه:

Honest Patriots (part 1, entitled «Germany Remembers,» pp. 15 - 61).

24- Shriver, Honest Patriots, p. 61.

25- Lifton, Superpower Syndrome, pp. 196f.

26- Karl Jasper, The Question of German Guilt (New York: Fordham University Press, 1947), published as Die Schuldfrage in Germany 1946.

من الجدير بالذكر أن يسبرز نفسه تعرض لضغوط شديدة من النازيين. فبعد عام 1937، لم يسمح له بإلقاء المحاضرات أو نشر الكتب والمقالات. وسبق تحرير الجيش الأمريكي واحتلال هايدلبرغ تهديدا تلقاه بالترحيل إلى أحد معسكرات الاعتقال.